أشدّ الظمأ

طارق العربي، فلسطين

ذئبٌ يغادر القطيع

اليوم رأيت أربعة عمال يتناولون طعام الإفطار: عامل نظافة وثلاثة حمّالين.
عامل النظافة كان يقف بعيداً عن المجموعة،
يأكل خبزه مثل رجل يتنفس ببطء، مثل ذئبٍ مُنفردٍ وحزين.
وأنا أريد إخبارك بذلك؛ إخبارَك بالقصة؛
نادوني لأتناول طعام الإفطار معهم، لكنّي لم أذهب.
أردت ذلك، لكن عامل النظافة منعني عن المشي خُطوةً واحدة ...
أردت تناول طعامي معه، أن أجلس إلى المائدة وأضحكَ معهُ
وبدلاً من هذا رحت أشق طريقي مبتعداً مثل ذئب يغادر القطيع،
كمن يحفر قبراً لأبيه.
عامل النظافة يضحك والأصدقاء في الخارج يضحكون من لعثمتي وأنا أضحك
أضحكُ وأتألّم،
ما أجمل العمى يا صديقي، ما أجمل العمى بعد كل ذلك!

أشدّ الظمأ

... ثمّ أدّعي أنّنا هنا لنكمل حديثاً لم يدم أكثر من ثلاث دقائق،
لن أخبرك أنّ المرأة التي جاءت لتشتري الأفوكاتو
تقصّدت أن تراني بهذه الهيئة،
وأنّها كانت تبدو في السيارة التي جاءت بها لتنضمّ إلى العمّال
مُتسكعةً مثل امرأة قضت حياتها في التسوّق وصالونات التجميل.
في عالم ما بعد البروليتاريا يُنقذنا الطين من الجوع؛
والصخر من ضيق الشوارع؛ والكتب من علّة الزمان.
سوف أجيء إلى هنا كلّ صباح، مع أنّه يمكن رؤية صفّ العربات الطويل،

كلّ يوم كعربات قطار تنفصل الواحدة عن الأخرى.
مع أنّ الرجل الذي بال على نفسه وأخذ يتنفّس مثل الأسماك
لمّا عرف الجميع أنّه بال على نفسه،
ما زال يدفع العربة إلى أعلى وبالوتيرةِ نفسها منذ سنوات.
إنّ أشدّ الظمأ هو ظمأ يتغلغلُ بين الأصابع في الليالي الطويلةِ
وإنّ صيف هذه الحرب طويل، يكسره التحدّث مع تاجر،
كي يحمي نفسه من تجّار آخرين،
يريدون أن يعرفوا كيف أصبح الأذى بضاعة.
أجلسَ ابنه مكانه.
وادّعى أنني كنت أمشّط شعرك الطويل،
كأنني قلت كل ما تعذّر عليَّ قوله،
لن أخبر أحداً كم كانت فاتنة ذلك الصباح،
سيقولون أنّني أهذي بجمال غير موجود.

اليد اليسرى

أبعد من كناية،
أقول إنها مشكلة لغوية، فكل ما يتضّح يفقد سِرّهُ
استيقظتُ من نومي وأنتِ فيه،
و فيه رجل يمرّن نفسه على استعمال اليد اليسرى بدلاً من اليمنى،
ولما وجد عمله شاقاً جلس صامتاً على الكُرسيّ،
حتى بدا أنه يحاول أن يدرّب جسدهُ على حياةٍ أخرى،
ولما نجح الرجل في تحريك يده اليسرى، قلت:
إنّ المسيح حقاً قام، استخدم يدهُ اليسرى ومشى على الماء.
لكنّ الكناية لم تكن في المعجزة، بل في الرجل الذي أحتاجه.
بينما كنت أقف في الساحةِ ببنطالٍ من الكتّان وقميصٍ كُحليّ
ورأس كبيرة بدت في الصورة أكبر من جسدي.
كان الضحى يشبه ضحى لا أتذكّرهُ، وكانَ الرجلُ
كما لو أنه سبقني إلى هذا الصباح، يرفع صندوقاً بيده اليسرى،

كأنّ كل صندوق هو محاولته الأولى.
وأنا لا أعرف بأيّ يد أحمل هذا كلّه.
ظلّ الرجل يرفع صندوقاً تلو آخر، وفكرت أنني وبمساعدة منه،
أستطيعُ أن أعبرَ هذا الصباح:
السادس والعشرين من أكتوبر، في سوق نابلس.
إنّ اليد التي عادت من نومها، أيقظت الجملة الأولى،
وتركت لهذا الصباح يدي الأخرى.

حيواناتٌ مَسعورة

سنواتٌ من العذاب من أجلِ أن نكون ملائكةً بملابسَ نظيفة؛
وإذ يفارق الواحد عُمْرَه الآن يكتشفُ
أنّ البراءةَ ليست إلا السنوات التي كنّا نصدق فيها كلّ شيء،
حتّى المرّات الّتي أخبرونا فيها أننا حين نكبر
سيكون بإمكاننا شراء الأحذية التي نريد والذهاب بها إلى أيّ مكان.
الذي يجرّ العربة يعرف شكلاً آخرَ للسنوات،
إذ لا تمرّ سنة إلّا ويكسرها، متظاهراً بأنّه أفضل حالاً ممّا كانَ عليه.
لكنّي لا أعرف كيف أفسّر أنّني وبعد كلّ هذا العمر،
آخذ غضبي معي إلى كلّ مكان، حتّى أنّني صباح اليوم
جعلتهُ يكنسُ بابَ الدكّان مثل حماريَ الحزين،
وجعلت أبو الجود يقوم برفع الصناديق من مكان إلى آخر،
ثلاث مرات بلا سبب ثم جلست أتحسّس بريق عينيه،
وهو يبحثُ بصوت اجترحَ الإيمانَ من قناع الكفر
عن شتيمةٍ مُناسبة،
وبحذاء قاوم حجارة الأزقة على مرّ الزمان،
حتى صارَ العبد الفقير إلى الله: أبو الجود، صاحب الحذاء.
مؤخراً صرت أظن الجمال لن ينجو
وأنّ المعرفة الكثيرة مثل المعرفة القليلة،
في اللحظة الّتي ننفي فيها البراءة؛ نبدأ بالعواء مثل حيوانات مسعورة